ISSN: 2321-7928

الدرّ اليتيم

(للشيخ ماهر القادري)

﴿8﴾

ترجمة من الأردوية: د. عظمت الله[1]

من رحلة الشام حتى الزواج

مع أنّ أبا طالب كان يعتني بابن أخيه اليتيم محمد في طفولته ولكنّ محمدًا لم يقض الطفولة في اللهو واللعب مثل الأطفال الآخرين حتى في ذلك العصر. وأنه خفّف أعباء العناية والرعاية التي كان يقوم بها عمّه بحيث كان يرعى ماعزه في الغابة طوال النهار. وعندما كبر محمّد تولّى بنفسه مسؤولياته وكفل بنفقاته، وتبنّى المهنة الأكثر احترامًا في العالم ألا وهي التجارة كوسيلة لكسب عيشه في هذا العالم الحافل بالوسائل. وكان محمد نظيف اليد وصادق الكلام، فلم يكن في حسبانه قط بأن يتراجع عن كلامه بتأويل ما قاله وما وعده، إذا تعامل مع أحد في التجارة أو وعد بأيّ شيء حتى ولو قامت الدنيا أو قعدت، ومهما كان حجم الخسارة في التجارة... وإذا اشترى من أحد بضاعة فكان يترك ذلك على رضاه. حتى إذا أنه وزن قليلًا فيقبله. ولكن إذا باع بنفسه أيّ بضاعة لأحد فكان يزنه وزنًا إضافيًا. وكان صدقه وأمانته وحسن معاملته حديث العهد بين التجار، بأنّ الناس يموتون لأجل قرش واحد في المعاملة التجارية، ولا يتردد كل شخص في بذل الجهود لأجل مصلحته ولو بطريقة خاطئة، ويتم الابتكار في اختيار التدابير والخطط الجديدة لتحقيق الربح والمنفعة، إلا أنّ هذا ابن عبد الله فهو تاجر بسيط اليد، ولم يُر أحد سخيًا سواه في مجال التجارة.

كانت خديجة، البنت الأرملة لخويلد، امرأة شريفة وغنية، وكان يتولّى الأقارب

[1] أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي

والأعزة والخدم مهامّ تجارتها. ولما سمعتْ خديجة بما كان يحظى به محمد من أمانة ونزاهة أرسلت إليه رسالة بكل احترام، ملتمسة بأنني أريد إرسال بضائعي التجارية معك إلى الشام بما أنني أثق بشخصيتك تمام الثقة، ولو تكرمت بقبول هذا فسيكون ذلك بمثابة إسداء لي كأرملة، فوافق محمد على الذهاب إلى الشام.

وبعد بضعة أيام، غادر محمد إلى الشام حاملًا بضائع تجارية للسيدة خديجة. وكان في هذه القافلة التجارية القصيرة، أحد أقارب السيدة خديجة وغلامها ميسرة!

وكان هذا هو نفس الطريق الذي شهد آثار قدم عبد الله أبي محمد ولو كان قد أزاحتها صروف الدهر وتقلبات الأيام، ولكنه كان يشعر بحب أبيه أي:

لقد مرّ أحد على ذي الطريق

ومن ميزات المحبة أنها تحوّل الماضي إلى الحاضر والحال إلى المستقبل. وإنّ إحساس محمد أدّى إلى قلب صفحات الأحداث الماضية. إذ امتزج كل من وفاة عبد الله في شبابه، وفقد السيدة آمنة لزوجها في سنّ مبكرة، وصوت الحب الصامت مع أجراس الإبل امتزاجًا.

وكان هذا نفس الطريق الذي سافر به محمد مع عمه أبي طالب عندما بلغ 12 عامًا من عمره. نفس الأودية ونفس الجبال والسهول. ولكن نعم! إنّ الرياح الصاخبة لقد نقلت كثبانًا رمليّة من مكان إلى آخر! لذا تحولت المسارات في بعض الأماكن، وتغيرت علامات الوجهة أيضًا. ولا بد أن يطرأ عليه مثل هذا التغير خلال فترة تتراوح بين اثني عشر إلى ثلاثة عشر عامًا.

كان محمد قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره. وبدأت شمس المسؤولية والبصيرة والذكاء تشرق من جبين السعادة. تحركت القافلة واستمرت في سيرها حتى وصلت إلى الشام. وطبعًا لقد مرّت هذه القافلة عبر الظلام وقطعت أشواطها في ضوء القمر. كما أنها جرّبت شدة الشمس واستراحت بالأظلال. وفي بعض الأماكن كانت السهول قاحلة بحيث لم

يكن من الممكن أن يُرى أثر أيّ شجرة لمسافات طويلة إلا الشجيرات التي يسودها الغبار والتراب هنا وهناك. والتي لقد أذبلتها شدة الشمس أيضًا، فيما يبدو بأنها تفتقر إلى قوة نموّ، وفي مكان ما امتدت سلسلة من النخل لمسافات طويلة، وبدأت الحقول المحيطة بها تبدو خضراء. ولاحظ كلّ من خزيمة وهو قريب لخديجة بنت خويلد وغلامها ميسرة، كثيرًا من الأمور الغريبة أثناء هذه الرحلة. إذ تنزّلُ البركات وتظهر السعادات في كل خطوة. حدثت أحداث ووقائع لم يرها قط من ذي قبل. مما كان يزيدهما حيرة. حتى أنّ شجرة يابسة مكث تحتها محمد، أصبحت مُخضرّة في لمح البصر. وكان هناك راهب اسمه "نسطور" يعيش في نفس المكان، إنه قال وفي ضوء النبوءات وكتابات الشيوخ القديسين، لا يمكنني أن أتردد في التعبير عن هذه الحقيقة بما قيل لي أن نبيًا سيأتي ويستريح تحت هذه الشجرة، فستتحول بفضل بركاته، الأغصان اليابسة خضراء. وهو كان يحمل في يديه مكتوبات من كتاب الإنجيل المقدس فكان يقرأها أثناء الحديث.

لقد حقّقت تجارة السيدة خديجة ربحًا أكثر بكثير مما كان يتوقع، وسلّم محمد إلى خديجة منافع جميع البضائع بأكملها. وتأثرت السيدة خديجة بأمانته وصِدقه كثيرًا. إذ أنها كانت ترى بأنّ هناك نزاعات وخلافات يومية في سائر الأمور ذات الصلة بالمعاملة التجارية والأخذ والعطاء والبيع والشراء. ويحاول كل شخص الاستيلاء على أموال الآخرين بطريقة غير قانونية. ويعد الناس ويتعهدون ثم يقطعونها ويخلفونها. ويندر أن يجدوا فيما بينهم رجلًا صاحب صدق وأمانة وتقى يشابه محمدًا، ومما يعد أمرًا استثنائيًا بل إنه معجزة.

قال خزيمة وميسرة للسيدة خديجة في صوت واحد أننا شاهدنا بأم أعيننا في سفرنا هذا برفقة محمد أمورًا عجيبة وغريبة، لعل أحدًا لم يسمعها قط. حيث ظهرت الأنوار في الليالي الظلماء بمجرد فضل بركة محمد. عندما جلس محمد تحت شجرة يابسة فاخضّرت الأغصان اليابسة في طرفة عين، وكأنّ أحدًا قد رشّ عليها ماء الحياة. إذا حدث حادث واحد فقط فيمكن أن نخبرك عنه، بينما نحن ظللنا معه في الحلم طوال المشوار. ويا لها

من بركة محمد! رغم كونه صاحب خير وبركة بالغين، هو إنسان متواضع وعطوف ورؤوف للغاية، ولم يدع لنا أن نشعر بأي نوع من الألم طوال الطريق. إذ أنه قام نفسه بكل عمل بجهد بالغ. ولا يحظى إلا من له حظ وفير برفقة مثل هذا الرفيق المتعاطف أثناء السفر، ولا يمكن مدح صدقه وتقواه بكلمات. طبعًا إنّ السوريات جميلات للغاية بما طارت شهرة سحرهن وجاذبيتهن في العوالم. ولكن لاحظنا بشكل خاص أنّ محمدًا لم يكن ينظر هنا وهناك أثناء سيره في الأسواق والشوارع والطرقات. وما هو إلا مثال للحياء والغيرة والشرف والجدية، ويا لها من شخصية! لا علم لنا بكم يمتد هذا العالم وكم هو كبير. إذ أننا لم نر إلا دولتين وهما الشام والعرب (الجزيرة العربية). ونستطيع أن نقول بكل جدية أننا لم نر في هذه البلاد رجلًا شريفًا وصالحاً وتقيًا ومباركًا يشابه محمدًا. يفدي هؤلاء الجهلة من العرب بأنفسهم، متباهين بشعرهم وبشجاعتهم وبأنسابهم. إلا أنّ أعظم مفخرة واعتزاز لهم لهو شخصية محمد القريشي الهاشمي.

كان كل شخص في مكة المكرمة معترفًا ومعجبًا بأخلاق محمد وصلاحه. وقد حصلت للسيدة خديجة تجربة شخصية في صدقه وأمانته فيما يخص بالتجارة، حيث أنّ كل ما شاهده خزيمة وميسرة بأم أعينهما زاد هذا الإيقان والإيمان وقد أدام هذا التأثير أيضًا. كانت السيدة خديجة أرملة فكانّ دنياها كانت مقفرة ومهجورة، ومشاعر ذابلة ويائسة! وعواطف أحاسيس ميؤوسة! فتحدث القلب والعقل في صوت واحد: يا خديجة! لا يمكن أن تجدي في الجزيرة العربية بأسرها، شخصًا أنبل وأشرف من محمد. فأرسلي له رسائل الأماني الصادقة، وليس هناك نقص في عدد الشباب والأثرياء في مكة المكرمة. ولكن ما علاقة نبلكِ بحياة هذه الشخصيات السيئة! إذا قبل محمد عرضكِ فسوف يتألق نجم حظك ونصيبك.

أرسلت السيدة خديجة عرض الزواج إلى مقام محمد فقبله. ووصل إلى بيت السيدة خديجة برفقة أعمامه أبو طالب وحمزة وبعض أقاربه الآخرين. والكل كان مهتمًا بالفعل. كان أقارب السيدة خديجة ينتظرونهم، حيث تم عقد القران، وألقى أبو طالب الخطبة.

وإنه حَمِد الله وأثنى عليه في الخطبة، ثم قال: ليس في قريش بأسرها رجل واحد في منزلة محمد، لا يمكن لأحد أن يساوي ابن أخي السعيد والأمين في النبل والصلاح. ولكن! ليس لديه ثروة ولا مال. وإنما الثروة والمال والنقود والكنوز والممتلكات هي مثل الظلال المتحركة. إنها اليوم مع شخص وغدًا مع شخص آخر. وليس لها من اعتبارات ومصداقية. إنما الشيء الحقيقي الكرامة الشخصية التي ستظل باقية في كافة الأحوال.

وكان هذا عهدًا جديدًا تمامًا في حياة محمد. وكانت السيدة خديجة أفضل شريكة للحياة. وشريكة لزوجها الصالح المطيعة والخاضعة في سرّائه وضرّائه، تصلح له فكرًا وخيالًا من كل النواحي. ولم تكن تختلف مع محمد في أيّ أمر. وكان الحب والولاء راسخين في طبيعتها. كما وجدت السيدة خديجة محمدًا أكثر تعاونًا وتعاطفًا مما كان يُتوقع. فكما كانت تعتبره ذا عفة قبل الزواج، ثبت أنه أكثر عفة وحياء. ولم يكن في خفائه بل في علانيته كذلك متصفًا بالصلاح والعفاف والحشمة، إذ كانت نساء مكة المكرمة يغبطن السيدة خديجة لأنها وجدت زوجًا صالحًا مثل محمد، ولكن الغبطة لا يمكن أن تكون سببًا في تغيير الأحوال، ولا يمكن أن تسلب السعادة التي قد كُتبت لأحد. على كل حال، لقد قُدّر للسيدة خديجة أن تكون زوجة لأفضل الخلق وأعظم البشر. وهذه هي المصائر الثابتة التي قد جفّت الأقلام بعد كتابتها، ولا يمكن أن يطرأ عليها أيّ تعديل.

وحظي محمد أيضًا بسكون وطمأنينة في صحبة السيدة خديجة. وكانت حياتهما العائلية تخلو من الاستياء والمرارة. كان كلاهما عطوفًا ورحيمًا وسندًا حقيقيًا للآخر ـــ حياة يسودها السلام والهدوء والوئام--- وإنما فرحة الزواج والخطوبة تكمن في الانسجام والتعاطف المتبادل ووحدة الفكر والرأي. إذا لم تتوافر هذه كلها فإنّ الجنة تتحول إلى الجحيم، وإنّ إطاعة الزوج أساس لإدارة شؤون المنزل، وإن تعاطف وتعاون المرأة لهو روح المجتمع. وحيثما لا يتم الحفاظ على هذا التوازن فتصبح الحياة المنزلية بمثابة حياة مقلوبة. وكانت حياة محمد وخديجة أفضل نموذج لهذا التوازن.

نزول الوحي

اقترب موعد ظهور وإعلان الهدف العظيم الذي قد بُعث محمد في العالم ليبلغه ويكمله! لقد أوشكت أن تتحرك يد الله لأجل فتح الصفحة الأخيرة والأكثر إشراقًا في تاريخ البشرية. وكان الظلام يرتجف بنفسه ويتكمّش، حتى يبدو أنّ هناك حاجة لإفساح المجال لنور النهار. وازدادت الشرور ضيقًا لما يُوحى ببدء عصر الخير. وكان الضلال يلفظ أنفاسه الأخيرة، إذ كان نجم الهداية يطلّ من نافذة الثورة. وكانت كل ذرة من الكون تشعر بتغيير و:

في حين أن العالم وصل إلى ريعان شبابه

فنزل نظام نهائي لصالح العالم

وكان لرسالته دوي في الفضاء.

وبدأت حالة من التأمل والفكر تعتري محمدًا. وكان هناك غار اسمه "حراء" على مسافة قريبة من مكة المكرمة. فكان يذهب إليه ومعه الماء والدقيق، فيظل منغمسًا في التفكر والتأمل والعبادة لأيام عدة. كان هذا التأمل الروحاني وحالة الانغماس في انتظار ظهور غيبي، كما كان البصر والفؤاد ينتظران رسالة ما بفارغ الصبر. كأن الطبيعة مضطربة للغاية، وإن هذا التتبع والتحير والتشوق هو الذي قد وصفه القرآن الكريم بـ"الضال". وكان القلب المبارك يزداد قلقه يومًا بعد يوم. حتى لو نفد الطعام والماء كان يذكر الله في حالة الجوع والعطش في عزلة الغار. حيث كانت الحقيقة المنتظرة تُطلّ منذ أربعين عامًا. ولكنها لم تظهر ظهورًا كاملًا.

كانت براعم القلب تنتظر نسيم القدس. وكانت مشاعر التتبع والتشوق تطمح إلى مقام الربوبية، إذ كانت الأنظار ترفع إلى السماء مرارًا وتكرارًا وتخفض ساجدة.

انتظار تلو الانتظار باستمرار --- حتى ظهر نور فجأة في ظلمة غار حراء إذ حضر الروح

الأكبر حاملًا الرسالة الربانية، وأُعيدت قراءة كلمات هذه الرسالة الربانية على لسان محمد بترتيل كامل، لقد ورد ذكر خلق الإنسان مع اسم الله في هذه الرسالة والوحي الأول، ذلك لأنّ محمد بن عبد الله تشرف بالنبوة ليربط العلاقة المقطوعة بين الله والإنسان، وإنما لهو الهدف العظيم الذي كان قد بُعث محمد في العالم ليبلغه ويكمله.

تتغير أحوال القلب بمجرد سماع رسالة إذا قرأتْ من جانب حاكم عادي، آمر وضابط، وإنّ هذه لرسالة رب السماوات والأرض --------- وكان قد أرسل الوحي من الذي تحيط ألوهيته وربوبيته وقدرته بالعالم كله، وبيده نواصي الخلق كله، ولو شاء لنُسفت هذه الجبال الشامخة كالدخان في لمح البصر، لتحولت البحار الهائجة إلى صحاري، لأمطرت النجوم الباردة جمرات. وكان من الطبيعي أن يتأثر القلب مع أنس، برعب بعد هذه الرسالة ذات الشأن العظيم، وإنها لهي الطبيعة البشرية. حتى لم يستطع قلب سيدنا محمد رسول الله إلا أن يتأثر بهيبة الله.

ولو نزلت هذه الرسالة على جبل بدلًا من محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لنسفت الجبل نسفًا نسفًا، ولقد كانت قوة القلب المبارك لهذا البشر الغالي والتي تحملت هذا العبء الثقيل من المسؤولية. كان هناك جبريل، وكان هناك كلام الله، وكان هناك وحي، وكان محمد العربي وغار حراء. ولا نستطيع أن نقول إلا هذا فقط، وكيف يمكننا أن نفسّر أمرًا لم يخطر على قلبنا، ولم نره بأم أعيننا. ولا يستطيع أن يفسّر كيفية الوحي الإلهي إلا من أُوحي إليه. هذا هو المقام الذي لا تخدم فيه الكلمات. حيث يضيق التفسير والوصف ذرعًا، ويصبح اللسان أبكم، ويرتجف القلم.

وبحد أقصى، ما نستطيع أن نقوله في لغتنا هو أنه قد أشرق مصير غار حراء. ولقد أصبحت ذراته كلها قابلة للغبطة، وبدأ يشرق كل ما حوله إشراقًا رائعًا. ولكن هذه كلها تشبيهات رسمية تُستخدم لكل فرد، إلا أنّ المظاهر والصفات التي لاحظها وأحسها محمد رسول الله لا تتناسب مع هذه الكلمات الرسمية. وطبعًا إننا لا نستطيع أن نعبّر عن

المشاعر والملاحظات التي لم ترها حواسنا حتى في الأحلام. حيث تحير الفلسفة أيضًا بعد الوصول إلى هذه المرحلة. وتُخطف الأبصار خطفًا وتقف العقول انبهارًا. وإنما هذا هو المقام المقدس والعالم الآخر حيث لا يمكن أن يُرى الطريق المستقيم إلا في ضوء مصابيح اليقين وأنوار اليقين وحده. ولا يمكن للشك والريبة والتردد أن يستقر في هذا المقال. وكيف يمكن لهؤلاء الأشخاص بنظراتهم الضيقة والذين لا يريدون النظر إلى ما وراء الأكل والخبز والبطون، أن يفهموا هذه الحالات الروحانية وأسرار الغيب. إذ لا حاجة هنا إلى عقول كارل ماركس وستالين لأجل الإيقان والإيمان به، بل إن هناك حاجة إلى قلوب أصحابنا سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا علي المرتضى، وسيدنا بلال الحبشي، والتي عرفت التزكية عرفانًا.

عندما وصل محمد رسول الله إلى البيت عائدًا من غار حراء كان العرق يصبّ من جبينه المبارك صبًّا.

كان الوجه متغيرًا بسبب الهيبة الإلهية. وما إن وصل إلى البيت فقال للسيدة خديجة رضي الله عنها: "زمّلوني، زمّلوني".

وأسرعت السيدة خديجة إلى إحضار الرداء وزمّلته. حيث أنه روى الحادثة كاملة. ولم تشعر السيدة خديجة بطبيعتها السلمية بأدنى تعجب ممزوج بالشك، في هذه الحادثة. بل أكّدت لزوجها أنّ شخصيتك مصدر للخير، ولن يضيعك الله، ثم إنها أخذته إلى ورقة بن نوفل الذي كان شيخًا عارفًا بالله، فقال ورقة: هذا هو الشرف الذي كان قد أنزل على أنبياء بني إسرائيل. يا محمد! أهنئك.

سواء كان الأمر يتعلق بسعادة، بحزن، بحب أو برعب، يبدأ القلب يخفق خفقة، بشدة هذه المشاعر، ولم يخف هذا العبء ما لم يتم التعبير عنها مع الآخرين، وإنّ هذه هي الطبيعة البشرية، وقد ظهرت من مقام محمد صلوات الله وسلامه، هذه البساطة من الطبيعة في عالم الأسباب وعصر الحوادث هذا. ولعل الله أراد أن يرفع

من شأن المرأة ومكانتها بهذه الوسيلة منذ اليوم الأول من البعثة المباركة. أي أنّ أول تأكيد لنزول جبريل وبداية النبوة ينبغي أن يأتي على لسان الجنس اللطيف، لينبغي أن تخلق كلماته المملوءة بالحب والسكينة، لون الألفة في الخشية. إنما الخشية من اسم الله ومن رسالته أمر بديهي ينطق نفسه. وإن الذي يريد أن يفتح باب الشك والتردد بخلط هذا الأمر البسيط بالإيقان والإيقان العام، لهو يجهل عن طاقة الطبيعة البشرية والمذاق الصحيح لطبيعة الإنسان.----- لأنّ الناس يريدون قياس الأحداث وفقًا لمعايير ميولهم الشخصية، وعندما لا يتوافق حدث مع هذا المعيار توافقًا كاملًا، فإنهم ينكرون حدوثه إنكارًا ------------ وها هي أفكار خاطئة من النقد والتصحيح وجهود قليلة في سبيل التفكر والرؤى!